

اصل الاعتقاد بوحداية الله

من اوضح مرابا هذا العصر واجلة مفارخه توجيه نظر عملائه الى البحث عن الاصول في كل ما يتعلق بالشؤون البشرية وما يدخل دوائر العلم على اختلاف اجناسها وانواعها وتعدد جياتها وساحبها . فلم يقادرا هل التحقيق والتنقيب من شعاب الاستقصاء ما لم ينضوا اليه الركاب ولا اغفلوا من مجاهل الاستقراء مضيقاً الاً سلكوه حتى نهد العقاب وينبلي الفاض وتذل الصعاب .

وفي جملة ما وقفنا عليه نقصي الاعتقاد بالتوحيد عند اشهر الامم بالارض وشرويه مع نشوء القوى العاقلة في الانان من اصل غاية في البساطة والابهام لتلبسه اوهام الحدس والترجم حتى تجلت منه شمس اليقين واصبح حقيقةً علميةً عند ارسخ العلماء بل بديهيةً عقلية يحكم جميع العقلاء

ولما كانت عمدة البحث في هذه المسائل الاستقراء فقد اجمع اكفاه المتقاعين الى درس عقائد الامم والشعوب من قبل زمن التاريخ على ما ابد الرأي المشهور ان لامة على وجه الارض تخلو من الاعتقاد بقوة او قوى تفوق الطبقة البشرية تمنبط امورها وتتولى شؤونها عامة وخاصة حتى تفرغ اليها وتعمد عليها وغبه او رهبة

والذي يستلفت نظر المنصفين من علماء الطبيعة ان عقيدة التوحيد كان نشأها النظر الى الطبيعة نفسها حتى ان المشهور من قول سبنسر عن (القوة التي لا تُعرف) انه لا يبيد الا ان الله سبحانه يجلي بذاته وصفاته عن درك الادراك خلافاً لمن توم في ذلك القول ارادة الكفر والاحاد

اما يان نشوء هذا الاعتقاد الجليل على ما اتقى اليه بحث المجتهدين فهو على وجه التلخيص ان اول خاطر يمر في قلب الانان الاعتقاد على شيء هو قوة خارجة عنه بنى ذلك على انه ووجد في عالم بخوي قووى تفوق قوى البشر وتسلط على حياتهم بحيث لا يستطيعون الى التصرف منها سبيلاً . ومهما يكن من اعتقاد الانان الضعيف بقوة ارادته وافتداره على التغيير في مجرى بعض الحوادث والتبديل بالتقليل من شؤونه فانه يعود اخيراً عودة العاجز الصاغر واخاضع الدليل لتلك القوى الفاتقة ويرى انه تحت طائلة عقابها في كل ما يخالفها من فعاله . ثم يدوله بدليله العقلي ان تلك القوى الخارجة عنه كانت قبل ان وضع في مهده وستبق بعد ان يدرج في لحدوه . وعلى الجملة فان الانان يدرك بالفطرة ان الكون شيء مستقل عنه اليه

اقى ومنه يمضي وانه في ذلك المحيي وهذا المضي وفي كل ما يصدر عنه معتمد على شيء غير ذاته وهذه الخواطر البديهة في النفس البشرية عامة شاملة للناس اجمعين وليس من فرق جوهرى فيها بين الكبير والصغير ولا بين الانسان القديم الوحشى ولا بين الحديث المتحدن الايس . نعم ان الاول كان عاجزاً عن تقرير خواطره الساذجة وتحريرها في مثل هذا النسق كما يستطيع الثاني الا ان المعنى بجوهرو واحد في الانسانين كليهما . لان صورة هذا الوجود الذي نسميه بالعالم او الكون بما فيه من القوى البديهة النظام انما حصلت للانسان الحديث بعد مرورها على اطوار من تغليب النظر والاستدلال ولم تكن الا نتيجة العلم القانوني الذي تكامل مدى هاتيك الادوار . ومع ان الانسان القديم لم يكن يرى من امور العالم المنظور الالة من قبس بالقياس الى الحديث كان لديه عالم صغير على قدر ما كان لنفسه الصغيرة من مجال النظر ومبلغ المدارك والرغبات . فلم يكن يفوته ان عليه واجبات يرد بها لتلك القوى التي تجل عن ادراكه بسموها وجلالها . وكان يفقه ان مصدر جميع افعاله ارادة بشرية يكنها فؤاده . وجلة القول هنا ان فلسفة الانسان الاول في هذا الشأن لم تكن بعيدة عن فلسفة الانسان الحديث في جوهرها بعد ان اثار ليه ضياء العلم والتهديب . وكان من امكان ذلك الانسان القديم ان يدرك ايضا ان الباعث له على العمل هو الرغبة بقودها العقل . وعلى نفسه قاس حال الشمس والريح والجد والبرق وسائر المظاهر الطبيعية فتمثلها ذوات عاقلة فائقة في العظمة وجلالة الشأن وان لها ممة علاقة السائد بالمسود

وقد درجت جرثومة هذه الفلسفة اللاهوتية من مهدا عند الارائل واخذت بالتفوق والانتشار فعمت شعوب العمور وترسخت اصولها ودامت قروناً الى ما بعد ازمة التاريخ ولم تطرح ثوبها هذا الخشن الا تدريجياً حتى مر الانسان على اطوار تمدنه وبلغ من شأنه ذراه . وما زلنا الى اليوم نرى اصول هذه الفلسفة متمكنة في نفوس الامم الدنيا في مراقي المدنية والتبائل الوحشية . ففي ميثولوجيا شعوب اليونان وبلاد الهند وهنود اميركا الشمالية وسكان جزائر البحر الجنوبي كانت تمثل الشمس انساناً يحمل القوس والنبال . والنيوم جبارة من الطير . والمواصف تيناً فاغراً فاه . ويرى اهل التحقيق ان ليست حكايات الالة والابطال وسير الفيلان والجن والغناريت الا بقايا مجمعت من ميثولوجيا الطبيعة وقد بقيت اصولها وراء حجب النسيان ادهاراً حتى امامها البحث الجديد وايرزها الى العيان

ثم ان تشخيص المظاهر الطبيعية ازداد رسوخاً في اذهان اسلاف البشر القدماء باعتماد الارواح الذي يسوغ عده من اول ثمار الاجتهاد الفكري من باب الحدث والتضمين . ولقد

شهد السباح انه مع خلوع بعض القبائل من الدين الدستوري لم تخل قبيلة من الاعتقاد بوجود الارواح . واصل هذا الاعتقاد على ما يرجح ان الانسان الاول تصوّر بما استنتج من فلسفته في الطبيعة ان لكل انسان ذاتاً قريبة له في الوجود (على ما لا يزال اعتقاد بعض عانتنا الى اليوم) غير ذاته تسمى بالذات الثانية . وبهذا ينسّر ظهور الاباء والرفاق والاعداء في الاحلام بعد ان صاروا من سكان القبور . فكان النائم يزعم ان روحه في حلمه تلاقي روح احد اولئك الثانية فيجري معها حديث السلفاء او تشاركها في مأدبة الاقتراس . ومن هذا نشأ الاعتقاد بوجود عالم دائم من الارواح وهو عالم عند جميع القبائل غير المتدنة . والظاهر ان علة تسميته ورسوخه في متعدي مداركهم اجمعين . وعلى هذا الاعتقاد ايضا كانت تبنى اوامير قبائل المتوحشين بتعليل الامراض العصبية كالمستبريا وداء النقطة والحيلالات والاصداء حتى صور الوجوه والاشباح المتعككة عن سطوح المياه الراكدة

ومن هذه الخطوة في الاعتقاد خطأ الاقدمون الى الاعتقاد بكسني تلك الارواح في الريح والبرق والرعد حتى تتخلوا اشخاصاً ذوات نفوس متخلقة بما يشبه اخلاق البشر وافكارهم . والذي يريد حقيقة تولد هذا الاعتقاد من سابقه بالطبع كونه عاماً بلا استثناء عند جميع قبائل الارض في اول اطوارها . وكان مما استنبطه الاقدمون بالضرورة ان القوة التي تتصل بالاشجار وتسوق السحاب في عرض السماء لا بد ان تكون ذات نفس تشبه نفس الانسان وان النار التي تلتهم الاكواخ شخص ذو قوة عاقلة عاب اصحابها باحراقها فينبغي لهم استرضاءه بالذبيحة ودعاء الابطال . والحاصل انه لم يكن لذلك الانسان اظن التديم من محيد عن اعتقاد النار مشاركة الانسان بوجود النفس وقوى العقل والادراك ولم تفرق فلسفته بين الروح الانسانية واهية النار

ثم تبين للباحثين ان الاوائل كافة كانوا يعتقدون بخلود روح سيد القبيلة (او قريبة ذاته) بعد الموت وبدوام عنايتها بشؤون القبيلة ترد عنها هجمات الاعداء وتنبئ ابطال الرغى وتعاقب الخونة وانذال الرجال . فكانوا يترضونها باقامة الحفلات كما تترضى الرعية ملكها العلي الشأن ويعتقدون ان كل اساءة تقع من قبلهم كالتقصير في اداء العبادة او الهزيمة في الحرب كانوا يجازون عنها اما بجيل جارف او نار محرقة او مجاعة شاملة ايذاناً بسخط ذلك السيد عليهم وعلى هذا الوجه كانوا يشركون الارواح المتلبسة بقوى الطبيعة بارواح اسلافهم على ما يؤخذ من خرافات (ميثولوجيا) الاقدمين . ففي اساطير الشيدا ان الپيريس او الاباء تسكن الجوع مع ياما ابي البشر الاول عاكفة على تدبير شؤونهم فنسوق اليهم غير الرحمة احياء

للزرع والضرع او تحسبها عنهم عقاباً لهم بالجذب والقطف . ومن عقائدهم بتلك الارواح انبثا
كانت تلازم العواصف والرياح في حركاتها كما يحف تجيش الحرمس بالاله فودان جبار الصيد
وكان قدامه اليونان يعتقدون بان الجو الازرق (اورانوس) ابو الالهة والناس اجمعين .
وكان مزج عبادة السلف بعبادة الطبيعة شاملاً لا قدم ام الارض . وقد بقيت لهذه العبادة
السيادة المتخمة في كثير من اديان الامم الوثنية مع نقب صورها على مدى الازمان كما هو
مشهور في ديانة اهل الصين واليابان وقدماء الرومان . الا ان الرومان في اواخر ايامهم اتخذوا
الالهة المتحولة عن مظاهر الطبيعة معبودات لهم ايضاً مع الهتهم الخاصة في بيوتهم . غير انهم
كانوا يحترمون ايضاً الهة غيرهم من الامم المعروفة لهم حتى صارت عبادة هذه الالهة الفريدة
المقام في تاريخ التمدن عبارة عن مزيج من الاديان والعبادات المختلفة بحيث ادى هذا الامتزاج
الى تقايبها وتلاشيها . فتمتد بذلك الطريق الى ظهور ديانة ارضي برهانا واعلى سلطاناً تزيد الخطوة
القربى الى حقيقة التوحيد . ذلك ان الشؤون السياسية في امه الرومان كان لها حظ في اسباب
ارتقايم الى عقيدة التوحيد الحقيقي ناشئة عما سبقها من الاعتقاد بالارواح وتاليه الطبيعة في
اطوار الانسان الاولى . وهذا دليل على ان التوحيد في نظر التاريخ الاجتماعي لم يرتق عن
اصله — عبادة الطبيعة والسلف — الا على سلم التدرج البطيء شان كل مظاهر الارتقاء
ومن ذلك كله نرى انه كان من الطبيعي لبلوغ الفكر البشري هذه المحجة العليا .
عقيدة التوحيد ان يدرك شيئاً من حقيقة السماء والارض وما بقي من مظاهر الكون . وقد
تأتى مبلغ هذا الارتقاء وظهرت النوارده لأم التمدن قبل العصر المسيحي وطلع فجره على عقول
جماعة من عظام فلاسفة اليونان الراضين المتبصرين حتى انه يقال ان مدارس الاسكندرية
مدى قرنين قبل المسيح وقرنين بعده كانت منارة المثل هذه الباحث الجليلة . وقال بعضهم ان ما
ادركته من تلك الحقائق الفلسفية يبي هو المعول عليه في ما يلي من القرون الى ايام الفيلسوفين
العظميين باكون وديكارت وان قادة العقول عند اليونان منذ اناكساغوراس وسقراط وافلاطون
كانوا على الحقيقة من اهل التوحيد . فانهم ما عثموا ان اعملوا النظر في حقائق المظاهر الطبيعية
حتى رأوا ان مثل الخلائق البشرية مصادر لها . ثم على توالي الاستدلال اهتموا من طبائع
الوجود ووحدها العامة الى وحدة خالقها وضابط شؤونها غير انهم يحكم النقص في كل بداية
استندوا اليه صفات طبيعية مع شيء من الصفات الانسانية

الا ان النظر العقلي لم يكن هو السبب الوحيد في الاتيئاء الى التوحيد بل كان يشاركه
ايضاً الاعتقاد بحماية الالهة التي نشأت عند قداماء اليونان بالارتقاء السياسي من عبادة السلف .

فحين كانت الضباثل تنتظم امة سياسية كان ينشأ معها الاعتقاد بالالهة الحامية لها او كان الاعتقاد باله احد تلك الضباثل يتغلب على غيره من شركائهم حتى كان يؤول الامر الى اجتماعهم على اتخاذوا الماء واحداً للامة كلها. قال بعض المحققين ان من الشواهد الجلية على ذلك ما آل اليه امر العبرانيين في انتباههم الى عبادة الكائن السرمدي الحي القيوم (يهوه). قالوا ومن اشهر عقائدهم الاصلية على ما يؤخذ من توراتهم ما يشيد القول بتعدد الالهة الذي غلبت فيه عبادة السالف على عبادة الطبيعة . فقد كان للترافيم (والالهة الحامية للعيال) التقدم في بادىء الامر على الهة الطبيعة ثم غلبت عبادة هذه الالهة كالبعل ومولوك وغيره على الاولى . وكان عندهم ان (الوحيم) بصيغة الجمع خالق الكون وان بنوه يتزوجون بنات الناس على ما جاء في التاريخ السابق للطوفان وان الاله الحامي لهم يهوه احد (الالوهيم) ورب اجناد السماء . وكان من اعتقادهم فيه ان نبيه المختار يغلب بحوله ويمينه القادرة وذراعه المرتفعة لان المهم هذا اعظم من الهة الامم مجاورهم وانه هو الاله الحق وحده ومن ذلك اتهموا الى توحيد وصار اسمه الاعلى علماً على الوحداية

وأمة اليهود هذه كانت من ارقى الامم فطنةً وذكاءً فانهم منذ عهدهم الاول ادركوا شان الوطنية وفاقوا سائر الشعوب بشدة العصبية القومية والمبايى الايدية . وكان ما ادركوه من الاعتقاد بيهوه المنتشر في اسفارهم اسمى من سائر ما ادركوه سوام من امم الارض قبل المسيح . وكان من طبيعة الامران يتغلب هذا الاعتقاد تدريجاً في العالم الروماني على ما سبقه من تعدد الالهة . لكن لم يقر سلطان التوحيد المبراني على المقول ولم يحط باحسن القبول حتى جرده من ملابسات الغصائص الشعبية اليهودية يسوع الناصري واخرجه من قيود التحديد بولس الرسول . وهذا ما اردنا الوصول اليه من نشوء عقيدة التوحيد بالاستقراء وقد بقي من تاريخ ارتقائها وتحقق صنات الوحداية الذاتية من الوجه العلي الفلسفي ما قد يهيم الوقوف عليه ككنا اقتصرنا من هذا البحث على ما مرّ وربنا عدنا اليه

مترى قندلفت

دمشق الشام